الجزء السادس

الفصل الثاني

استيقظت سلمى عند الفجر على صيحة راعبة أصدرتها رجاء، فوثبت مـن فراشها كأنما لسعتها أفعى.. وضمت أختها الوجلة الى صدرها، وكل جانحة فـي جسدها ترتجف:

- ما بك، ما بك يا رجاء؟

وأخذت رجاء تجهش بالبكاء..

- كنت أحلم.. انه كابوس.. كاد يكتم أنفاسي.. رأيت هيكلا عظميا، كم هو رهيب يا سلمى! يدخل الغرفة ويقترب مني ويضع أصابعه الفولاذية علـى صـدري ويضغط وهو يقهقه قهقهة شيطانية.. وحاولت أن أصدر صيحة ولكن صـوتي اختفى وأخرس الرعب لساني.. وعلمت أنه كابوس وحاولت أن أفيـق ولكـن النوم قد تملكني.. وما زال الهيكل يضغط.. ورأيتك تمرين فقلت لنفـسي "لـو سمعت سلمى صيحتي لجاءت الى إنقاذي، ورحت أجاهد كي يخرج صوتي من حنجرتي.. آه يا سلمى انني سأموت.. أعلم أنني سأموت..

وابتسمت سلمى وقلبها لا يزال يدقّ بعنف:

- هراء! انها أضغاث أحلام.. أتخشين الأحلام؟ لا شك أن صدرك كان يؤلمـك وأنك كنت تفكرين بالموت فألف عقلك الباطن هذه التمثيلية المرعبة.. وأنا مثلا اذ كنت أشعر بألم خفيف في أسناني حين كان ينبت لي ضرس العقل كنت أحلم أنها منخلعة في فمي أنزعها بسهولة ثم أرجعها ثم أنزعها، ثم أحلم أنني عنـد الطبيب يخلعها لي بكماشة ضخمة، وأنني أستعيض عنها بدلة صناعية.. وكل هذا بسبب الألم الذي أشعره.. لقد جربت الأمر عدة مرات.. وانتهت الأحـلام حين خلعت الضرس النخر، وهاهي أسناني جميعها في فمي لـم أخلـع منهـا ضرسا واحدا..

- آه يا سلمى أتحسبينني سأعيش؟ أتظنين الحرارة انخفضت عني يوما أقل مـن 39 درجة؟ أتحسبين نوبات السعال كفّت عني؟ ثلاثة أعوام يا سـلمى، فكيـف

آمل؟ ماذا فعلت لي الأدوية؟ جاءت بعد فوات الأوان، ولن أشفى!.. أبـدا لـن أشفى..

- أنت واهمة يارجاء، لقد تحسنت كثيرا في هذا العام.. والطبيب أخبرني أنك في دور النقاهة.. أليس تحسنا كبيرا أن ينتفي المكروب مـن شـهر؟ الـسعال لا يخيف.. وكثيرون يسعلون بعد برئهم بزمن طويل.. وكثيرون من الأصـحاء يسعلون.. لا يا رجاء، انك تعيقين شفاءك لو ساورتك هذه الظنـون.. أخطـر شيء أن تخذلي غريزة الشفاء في نفسك!..
- لست أبالي أن أموت وأنت قربي تخففين الأمر عني.. كـم أخـشى الوحـدة ياسلمى!..
- إسمعي يا رجاء ان لم تكفي عن هذه النغمة عدت بك الى المستشفى.. يجب أن تساعديني لا أن تعيقي مهمتي..

وأخذت تسري عنها حتى هدأت ونفضت عنها الأفكار السود.. ولكن سـلمى لم يزدها الأمر الاّ قلقا على قلق.. وكانت نفسيتها الخائفة الحزينة تبدو فـي أحلامها المزعجة.. ترى نفسها على شاطئ البحر وأفراد العائلة يسبحون في مرح، وفجأة تغمرهم موجة كبيرة ولما تنحسر تكون رجاء قد اختفـت مـن الثلة المرحة.. وتستيقظ على عذاب مقيم ولا تزال تنتفض من حين لآخر في أعماق الليل البهيم على نوبات سعال رجاء أو أنينها فتـشعر بـالهم يـدمي روحها وتهتف لنفسها:

- رباه! هل أبقيتها لأراها تموت قربي؟

وينتاب سلمى الخوف من أن تكون قد أساءت الى أختها الحبيبة بابقائها فـي جو بحري رطب، ربما زاد الحالة سوءا.. وتـشعر بمثـل شـعورها يـوم أحضرتها من لبنان الى دمشق.. فتسلّم أمرها لله..

ولكن النهار يكذّب مخاوف سلمى.. ان رجاء تتحسن وهي مشرقة مرحة ترتع على تلة الطابيات ولا تكف الحديث عن الدكتور.. ولكنها كانت قلقـة هي الأخرى، والآنسة صفاء وسهى تزورانها وتنصحانها وتنقلان لها ما قاله الدكتور أن من الأفضل لها أن تعود الى المشفى حتى تبرأ برءا تاما..

ووضع لها خالد حدا لهذا القلق:

- سلمى! أريد أن أحدثك بأمر..

قال هذا بلهجة خطرة وسلمى تهم بالذهاب الى فراشها بعد أن ودعت سـهى وصفاء إثر سهرة العائلة في غرفة الإستقبال.. وابتسمت سلمى:

- ألا تستطيع أن تؤجل الحديث؟
- لا، لا شك أنك تعلمين فيم أتحدث..
- عن رجاء؟
- نعم هل يعجبك هذا؟
- لست أفهم ما تعني..
- انك لا تدركين الخطر في بقائها.. أخواك صغيران.. ونحن!.. أين هي الآن ؟
- مع سعاد تتنزهان على التلة في ضوء القمر..
- أرأيت؟ انك لا تستطيعين أن تمنعيها من الإختلاط بهما.. بل الخطـر علينـا جميعنا.. أتحبين أن تري المأساة تتكرر في المنزل؟
- ولكن فيم هذا الحذر؟ ليس هناك ما يخشى ما دامت حالتها سلبية، والاّ ما كان الطبيب سمح لها بالمجيء الينا..
- هذا لايعني أن الخطر انتفى.. فهو يعاودها..
- رجاء حريصة فوق الحرص حتى لو عاودها لا سمح الله! ولكـن فـيم هـذا التشاؤم؟ ان صحتها تتحسن يوما بعد يوم.. وان بقيت على هذا المنوال بضعة أشهر استعادت قواها الكاملة..
- أتحسبينني أقتنع؟.. لست أدري كيف أتحدث معك.. ان حجتك دائما حاضـرة ومع ذلك لا أقتنع.. ان قلبي يحدثني أن هذه الفتاة ستموت لو بقيت هنا..
- وأنا قلبي يحدثني أنها ستموت لو ذهبت هناك.. انني أعلم من وضعها النفـسي مالا تعلمه، وأعرف الخطر في عودتها.. وزم شفتيه وهو يعلّق:
- هذا هو الفارق بين الخيال والعقل.. انك تبنين الأمور على أساس الوهم وأنـا أبنيها على أساس الواقع.. كل ما في الأمر أن عليها أن تحسن علاقاتها هنـاك وتكون مجموعة من الصديقات.. كيف كنت تدبرين شؤونك أنت؟

- ان ظروفي غير ظروفها.. وحالتي الصحية أفضل من حالتها وعمري أكبر من عمرها فلا مجال للمقارنة.. انني واثقة أنها تتضرر كثيرا لـو عـادت الـى هناك!..
- أريد أن أفهم ماذا تفعلين لها لو نزفت دما في منتصف الليل ولا من طبيب ولا من يسعفها ولا..
- وأريد أن أفهم ماذا يستطيع الطبيب أن يفعل لها.. رأيتهم هناك ينزفون ورأيت كيف يعالجون.. ليس هناك أكثر من إبرة لتخثير الدم، سأستعد لها.. ومع ذلك كانوا ينزفون حتى يموتون، أو يمن الله عليهم بالحياة.. ولكن برءـايتي لـن أجعل الأمور تصل الى هذا الحد..
- ولكنها بحاجة الى ملاحظة يومية من الطبيب والى العلاج والإبر.. هل تقنعيني بأنك تستطيعين أن تنوبي عن الطبيب؟ أما اذا احتجت لمساعدة أي طبيب هنـا فاعلمي أن كل زيارة في النهار بعشر ليرات وفي الليل بعشرين ليرة.. عـدا أجر السيارة في قدومه وانتظاره وإيابه.. ناهيك عن نفقات الأشعة والـصور بالإضافة الى صعوبة المواصلات لبعد منزلنا حتى لربما ينتهي كل شيء فـي ساعة الخطر قبل أن يصل الطبيب.. انك تغامرين بالفتاة مغـامرة خطـرة.. وانني أحذرك..
- يا أخي.. ماذا يفعل الآلاف ممن لا يجدون أسرة في المستشفى؟
- ينقلون العدوى لسواهم.. ثم يموتون.. ولكن لرجاء سريرها الشاغر فحرام أن تقضي عليها وعلينا..
- دع هذه المسؤولية لي.. لقد وازنت الأمر عشرات المرات قبل أن تحدثني به.. وانني مقتنعة أن بقاءها هنا هو الطريقة الوحيدة لإنقاذها.. ولن يضر أحدا منكم بشيء..
- أريد أن أسألك.. هل تستطيعين أن تتحملي النفقات الباهظة التي تحتاجها هنـا؟ وماذا يحدث لك ولها ان لم تجدي عملا في العام المقبل؟ انك تنفقين عن سـعة الآن ولكن لا تنسي أن تعويضاتك المقبلة حتى لو عملت لن تحصلي عليها قبل مرور أربعة أشهر أو خمسة.. فأنت تعملين بساعات إضافية ولـست مدرسـة

رسمية تقبض راتبها كل شهر لتتصرف بهذا الأسلوب.. ويكون الـسرير قـد شغل وندم حيث لا ينفع الندم..

- أنا وأنت كاللذين وقعا على كوب ماء فيه نصفه فقال الأول أنه ممتلـئ حتـى النصف، وقال الآخر أنه فارغ حتى النصف.. لم تكـون متـشائما يـا أخـي وتفترض هذه الفروض السلبية؟.. أنا فكرت بكل ما قلـت وأحكمـت تـدبير أموري في كل الأحوال!
- لا أستطيع أن أثق بحكمتك وأنا أراك تفكرين بشكل غير واقعي.. انني أعلـم كيف ينتهي الأمر.. أن نتحمل نحن نتيجة تدبيرك الطائش فوق ما نحتمل مـن أعباء البيت.. نغرق في الديون.. هكذا تريدين..
- يا خالد، بين أيدينا حياة غالية وأنت تنظر الى الأمر من وجهة تدبير النفقـات، وأنا أنظر اليه من وجهة التحسن الذي تناله رجاء.. أنت لو ألقي اليك الأمـر لفعلت الواجب، أما أنا فأعمل ما يمليه علي الحب.. انني أفهم أن هذه الحيـاة الغالية علينا كلنا، أقل خطأ يودي بها.. وأعلم أننا نغامر في كل قرار نتخـذه بشأنها.. ولكن أحتفظ بمقياس دقيق لا يخطئ، فان رأيتها تستمر في تحـسنها علمت أنني على صواب أو يسوء أمرها...
- لماذا صمت؟ أجيبي، أتمي!
- علمت أنني على خطأ وأعدتها الى المستشفى!.. ضحك خالد بتهكم:
- أتظنين المصح تحت تصرفك؟
- ليس من شيء تحت تصرفي! ولكنني على ثقة أن قلوب النـاس ليـست مـن حجر.. وسيجد الدكتور ألف وسيلة ليدبر لها مكانا..
- عدنا للبناء على أوهام..
- وأما عملي فانني واثقة أنهم لن يجدوا أفضل مني.. لقد جاء سؤال للطالبات من هي المدرسة التي تركت أثرا في حياتك فكان جـواب الكثيـرات أن ذكـرن إسمي.. ولو فرضنا أن حدث أنهم استغنوا عني في التدريس ألا أجـد مكانـا كمذيعة أو شيئا من هذا القبيل؟ ولو اضطررت الى الإستدانة فانني أعلم أننـي

قادرة على وفاء الدين.. يا أخي أنت لا تعلم شعوري.. فوالله لـو كنـت فـي عصر الرق لم أجد غضاضة في أن أبيع نفسي لتنقذ حياة رجاء!..

- عدنا الى العاطفة والخيال!
- ما قيمة المال ان فقد الإنسان عزيزا؟ كل الأمور تحل الاّ الحياة فـان ذهبـت لاتعود..
- أنا أعلم أن من العسير علي أن أقنعك.. ان حجتك حاضرة أبدا.. ولكنني أومن أنك على خطأ، وأنا لا أريد أن أتحمل تبعة أخطائك.. لا أنا ولا أديب..
- وعبد الرحمن!
- أتركي عبد الرحمن في همه! انه لا يتقاضى هنا الاّ ربع الراتب الـذي كـان يتقاضاه في فلسطين.. اتفقنا أنا وأديب على أن نترك البيت ان أصررت علـى بقائها.. فاحملي التبعة بكاملها ان شئت!..
- تخرجان! جميل والله.. أخرجا يا أخي بل سأخرج أنا وهـي، وابقيـا أنتمـا.. فالبيت بحاجة اليكما، وليس بحاجة الي.. انني تعبة ويكفيني هذا المقـدار مـن المعاناة الليلة.. تصبح على خير!..

وحملت سلمى نفسها الى الخارج.. وما كادت تلج باب غرفتها حتى وجـدت رجاء مستندة الى السرير ووجهها شاحب كالأموات، وسعاد قربها وقد تقلص وجهها بأبلغ معاني الأسى:

- سلمى هيئي لي حقيبتي الليلة! سأسافر في الغد..
- لا تكوني مجنونة يارجاء!
- سمعت طرفا من الحديث، فلا تخدعيني بعد اليوم.. لقد رأيت في نظراتهما كل شيء، وكان علي أن أفهم وأنسحب قبل أن أسبب هذا الإنقـسام فـي شـأني وأسبب لك هذه الآلام.. كان علي أن أفهم أن هذا البيت لم يعد لي مكان فيه!..
- أبدا يارجاء أنت واهمة.. خالد لم يكن في أعماقه يبتغي الاّ خيرك، فان أقنعته أنه واهم انتهى كل شيء.. فساعديني يا رجاء ساعديني في مهمتـي بعنايتـك بنفسك.. وأجهشت رجاء بالبكاء:

- أعلم أنني غريبة.. غريبة في بيتي.. غريبة على الأصـحاء.. غريبـة علـى العالم.. دعيني أذهب يا سلمى!.. حتما سأذهب، فلا تتعبي نفسك.. لا أريد أن أكون سببا في انقسام العائلة..
- وكانت سعاد صامتة تمسح دموعها المتهللة.. فهتفت بها رجاء:
- أحضري لي الحقيبة يا سعاد.. سأهيئها بنفسي!..

وضمتها سلمى وهي تقول بانفعال:

- لا تكوني سخيفة يارجاء.. أقسم أنهما لا يحملان لك الاّ الحب.. انهمـا طيبـا القلب، ولكن المسألة وجهة نظر وسنقنعهما أنهما على خطأ!..
- سلمى أعلم كل شيء فلا تخدعيني..قرأت رسالتك..
- أية رسالة؟
- رسالتك التي لم تبعثيها الي!.. وقعت بيدي وأنا أبحث عن قصصك الجديدة في الدرج.. انني أعلم كيف تعانين!
- أنت واهمة يارجاء، لم يكن شجارنا يعنيك، بل هو من أجل الحجاب.. اعتذرا، وعاد الصفاء.. انني حمقاء لأبقي هذه السخافة في درجي..
- لم يعد هذا المنزل جنتي التي أحلم بالعودة اليها.. تغير كل شيء.. لم يعد البيت الهانئ السعيد الذي أفخر به..
- بل هو كذلك يا رجاء رغم كل شيء، حقا أن المحنة التي عانيناها في فلسطين قد غيرت الكثير في وجدان شعبنا، وبرزت فيه صـراعات أفكـار جديـدة، وأساليب حياة قديمة نتشبث بها ويعاني منها كل بيت في العالم العربي.. ونحن جزء من هذا الكل.. فليس من بيت سعيد ولا حياة سعيدة لا تتخللهـا بعـض المشاكل، وعلينا أن نواجهها بـشجاعة، فهـي ذيـول لـضائقتنا وخـسارتنا لأوطاننا!..

* * *

وأصرت رجاء على السفر.. لقد جرحت حساسيتها في الصميم، وأصبح اندمالها عسيرا.. وأخذت صحتها تسوء يوما بعد يوم وحرارتها ترتفع ارتفاعا

عاليا، وفارقتها حيويتها ومرحها فلا ترى الاّ ساهمة أو دامعة.. فاضطرت سلمى للإذعان الى رغبتها ومرافقتها مع أخيها عبد الرحمن الى دمشق..

وودعت رجاء أخويها أديب وخالد بأحسن ما يودعان به.. فوقفا لا ينبسان ببنت شفة والحزن والأسى مسيطر عليهما.. والتفتت رجاء الى أمها وقالت:

- قبليني ياماما.. فأنا اخشى أن لا أراك بعد اليوم!.. ثم تردف ضاحكة وقد رأت عيني والدتها تفيضان بالدمع وهي تضمها مودعة:
- انني أمزح يا ماما.. فلن أغيب عنكم طويلا.. سأفعل جهدي حتى أستحق أن يضمني هذا البيت..

أما سلمى فكانت تكاتم انفعالاتها.. لقد صممت هـي الأخـرى علـى أن لاتعود!.. وانسحب أديب وخالد الى غرفتهما اذ لم يحتملا الموقف، فهتفت رجـاء بصوت عال:

- وداعا!.. لا تبخلا علي برسائلكما.. قبلي الجميع عني يا سلمى!

وقبلت سلمى أفراد العائلة بالنيابة.. ولما بلغت سرير خالد شد اللحاف فـوق رأسه، ولمحت سلمى وجهه محتقنا.. كان على وشك البكاء..

وسارت رجاء بخطوات ثابتة نحو العربة التي تنتظر أسفل التل وهي تلوح لأمهـا وأخويها هشام وسعاد..

وفي ذلك المساء كان ثلاثتهم يطوفون بمكاتب دمشق فلقد أبت رجاء أن تذهب الى المصح دون أن تحمل للطبيب هدية لطيفة: بعض كتب العقاد، المؤلف الـذي يفضله ويقدره أعظم تقدير، ولصفاء ديوان أبي العلاء، ولسهى كتابا فـي شـغل الصوف الذي تود أن تمهر فيه..

وكانت متوتّرة الأعصاب لأنها لا تجد ماهو أفضل، وليس في الوقت متـسع لتفكر أو تبحث عن شيء آخر، والسيارة تنتظر وعبد الرحمن يستعجلها!

وهمست لها سلمى:

- ليس من اللائق أن ننسى الآنسة بشرى!.. ونظرت اليها رجاء دهشة:
- أنا لا أحب نفاق العواطف.. وهل تهتم هي بالكتاب أهديه لها؟

- أعلم، أنا لا أريدك على هذا.. ولكنني أحب أن تحتفظي بروحـك الرياضـية وتذكري أنها ليست الاّ فتاة مسكينة راغبة في الإستقرار..

ولما اقتربت السيارة من المصح وبدا متلألئ الأنوار، سألت سلمى:

- كيف تشعرين؟
- لست أبالي بأحد ان بقيت قربي!
- سأسعى الى ذلك جهدي..

لم يكن أنبل ولا أرق من الطريقة التي استقبل بها الدكتور رجاء.. لم يذكر شـيئا عن الحرج الذي لاقاه بسبب ترددها وتأخرها.. بل ابتسم قائلا:

- لا شك أن رجاء اشتاقت الينا كما اشتقنا لها.. وابتسمت سلمى:
- لقد تغلبت الدوافع على الدواعي.. ففضلتكم علينا.. فالتفت الى رجاء:
- حقا! هذا من حسن ظنا..

وأمر الممرضة أن تعد لها السرير الشاغر في غرفتها..

* * *